

التسامح والمصالحة مواقف تاريخية ونماذج تفعية لمشروع مجتمع شمولى

د. دواى فرادى

جامعة تبسة

ملخص البحث:

إن الأزمة التى تعانيها المجتمعات الدولية عموماً، والعربية على وجه الخصوص، تدعو جميع العقلاء والباحثين فى العلوم الإنسانية والاجتماعية والعرب - تحديداً- لتحمل مسؤولياتهم والمساهمة فى إيجاد مخرج وحل لهذه الأزمة واقتراح رؤية ولو مبدئية لمشروع مجتمع راهن ومستقبلى منفتح على العالم فى إطار خصوصيته الثقافية المتنوعة وهويته الأصيلة.

ولعل أحد أهم المرتكزات لقيام مثل هذا المشروع المجتمعي، والتي هي غائبة فى الواقع العربي المعيش الراهن، ما يُطلق عليه بركيزة التسامح والمصالحة. وإيماناً منا بقيمة هذه الركيزة فى أي مشروع مجتمعي، جاءت هذه المداخلة العلمية للتأصيل والتأسيس ومساءلة التاريخ، وكيف يمكن أن يستفاد منها فى واقع مجتمعنا الراهن؟ وما هي الضمانات التي قدّمها زماناً؟ أو التي قدّمها أناً ومستقبلاً لمشروع مجتمع مستقبلى شمولى؟ وللإجابة على ما تمّ طرحه من أسئلة كإشكالية للموضوع، كانت هذه المداخلة والتي احتوت على المحاور الآتية:

مقدمة.

1. تعريف التسامح والمصالحة لغة واصطلاحاً.

2. أهمية التسامح والمصالحة للبشرية كأساس فطري ومطلب شرعي.

3. المرتكزات المساعدة لقيام التسامح والمصالحة.
 4. حاجة الفرد للتسامح والمصالحة، أمثلة تفعية وواقع معيش.
 5. حاجة المجتمع للتسامح والمصالحة، مثاله وواقعه في التاريخ.
 6. آثار التسامح والمصالحة على حياة الفرد والمجتمع.
- خاتمة.

ثم أردفت البحث بمجموعة المصادر والمراجع التي تمت الاستعانة بها،
والله نسأل السداد والرشاد لما فيه خير البلاد والعباد.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين حقّ حمده، والصلاة والسلام على خير البرية ومن
لا نبي بعده، محمد بن عبد الله، النور الذي تبددت به حوائك الظلمات
والجاهلية، وعلى آله وأصحابه الطاهرين، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم
الدّين ثم بعد:

فقد احتلّ الإنسان منذ بدأ الخليقة الحيز الأكبر من الاهتمام في التاريخ
وحركته ونال الحظ الأوفر، وذلك لأنه الكائن العاقل المكلف بالاجتماع
والتعمير والتدبير، والمؤهل الوحيد للخلافة في هذا الكون لما أوتي من
خصائص ووسائل، ثم ليتحمّل جميع مسؤولياته بكل إرادة وحرية.

وكانت عناية السماء بهذا المخلوق العجيب غاية في حدّ ذاتها، فعلى مرّ
الدهور والأزمنة وعلى اختلاف تموقعه الجغرافي على هذه البسيطة، ما انقطع
توجيه السماء له بإرسال الرسل وتجديد النبوات حتى يحي حياة طيبة سعيدة
وفق متطلّباتها ومعطياته المتاحة له في محيطه، وسواء كان ذلك في بيئة
بسيطة بساطة التجمع الإنساني الأول، أو في شكل تجمع أوسع وأكبر.

وكما هو مقرر عند الباحثين والعلماء فإن الإنسان لا يتأثر بالتوجيهات والمثل الخلقية وهي مجردة ، بل حين يراها ملامسة واقعية في من يدعو لها ويعيشها في واقعه، لذا كان الاصطفاء للأنبياء عليهم السلام الذين مثلوا تلك الحقائق الخلقية في سيرتهم فكانوا الأسوة الحسنة في كل زمان ومكان بُعثوا فيه، وهم الذين جسّدوا جميع المحامد واستعلوا عن كل منقصة تخدش كرامة الإنسان وأرسوا منظومة الأخلاق - والتي كانت وظلت وستبقى هذه المنظومة- دعوة كل إنسان عاقل مكلف، وهم كل مصلح في أي مجتمع كان. ولعلّ أحد أهم ركائز تلك المنظومة الأخلاقية، ما يعرف بخلق التسامح والمصالحة، فهي دعامة كانت ولا زالت محور كل دعوة للاجتماع والتعارف الإنساني في القديم والحديث، فما هو التسامح وما هي المصالحة؟

1- تعريف التسامح والمصالحة:

أ/ التسامح:

لغة: جاءت لفظة التسامح في لغة العرب عند الكثير من اللغويين وفي المعاجم اللغوية بمعنى التجاوز وبذل اللين والهوان والتنازل، وهي كلها مفردات تكاد تكون مترادفة لبذل السماحة عكس القبح والخشونة في القول والسلوك. وهي لغة مشتقة من الفعل الثلاثي "سمح" وقال البعض ، بل من الفعل "سامح"، ومعناها اللين والمساهلة في غير احتقار والجود بما لدى الإنسان عن طيب خاطر وبذل عن قناعة، يقول ابن عباد: "رَجُلٌ سَمَحٌ، وَرَجَالٌ سُمَحَاءُ. وَرَجُلٌ مِسْمَاحٌ، وَرَجَالٌ مَسَامِيحٌ وَقَدْ سَمَحَ سَمَاحَةً وَسُمُوحاً وَسَمَاحاً: إِذَا جَادَ بِمَا لَدَيْهِ. وَنِسْوَةٌ سِمَاحٌ. وَسَمَحَ: بِمَعْنَى سَامَحَ، تَسْمِيحاً. وَيَقُولُونَ: إِذَا لَمْ تَجِدْ عِزّاً فَسَمَحْ: أَيِ لِنْ وَهْنٌ. وَسَامَحَنِي فَسَمَحْتُهُ وَالتَّسْمِيحُ: السُّرْعَةُ وَالْمُسَامَحَةُ: الْمُسَاهَلَةُ فِي الطَّعَانِ وَالْعَدُوِّ وَغَيْرِهِمَا وَرُمِحَ مُسَمَحٌ: نُقِفَ حَتَّى لَانَ"¹. ولمثل هذا المعنى كذلك . اللين والتساهل والمسامحة وخفض الجناح أشار الشاعر في قوله:

سامح أخاك إذا أتاك بزلة++++++ فخلوص شيء قلما يتمكن

في كل شيء آفة موجودة++++++ إن السراج على سناه يدخن².

اصطلاحاً: لم يرد تعريف خاص بلفظة التسامح في الجانب الاصطلاحي تحديداً بل جاءت لها مترادفات أفادت المفهوم ولم تذكر الفعل عينه، مثل عدم الإكراه أو لا إكراه، إقامة العدل، وعدم التعدي وارتكاب الجرم، وعدم التعاون على الإثم والعدوان والصفح وغيرها كثير مما يؤدي في النهاية إلى شرح لفظة التسامح اصطلاحاً.

ففي عدم الإكراه والتعامل بالسماحة من منظور الاعتقاد يقول سبحانه: ﴿لا إكراه في الدين﴾³، ومن منظور إقامة العدل والإحسان وعدم البغي مما يدل على التسامح يقول عز من قائل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾⁴ وفي حين تثبيت عدم العدوان والصفح حتى مع صاحب الشنآن المتعدّي يقول المولى سبحانه: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾⁵.

ب/ المصالحة:

لغة: اشتقت لفظة المصالحة من الفعل صلح الثلاثي، والصلح ضد الفساد، تقول: "صلح الشيء يصلح صلوحاً، مثل دخل يدخل دخولا، قال الفراء: وحكى أصحابنا صلح أيضاً بالضم.

وهذا الشيء يصلح لك، أي هو من بابتك والصلح بكسر الصاد: المصالحة، والاسم الصلح، يذكر ويؤنث. وقد اصطلاحاً وتصالحاً وصالحاً أيضاً مشددة الصاد... والإصلاح نقيض الفساد، والمصلحة واحدة المصالح⁶.

وبهذا تكون المصالحة في اللغة هي اسم للصلح والذي يعني المسالمة بعد المنازعة وهي خلاف المخاصمة، وهي كذلك بمعنى المودعة والمهادنة.

اصطلاحاً: اتفق تعريف العلماء على لفظ المصالحة بأنه: " عقد يرفع النزاع"⁷ بين المتخاصمين، سواء كانوا في ذلك أفراداً أو مجموعات.

3 أهمية التسامح والمصالحة للبشرية كأساس فطري ومطلب شرعي:
لأهمية التسامح والمصالحة في حياة الإنسان سواء كان على مستواه كفرد أو على مستوى التجمعات البشرية وحتى يحظى هذا الكائن بالحياة اللائقة به ويحقق الغاية من وجوده، جاءت تشريعات الإسلام لتكفل له ذلك وعلى جميع الأصعدة، ولتكفل له المصالح الخاصة كما هي العامة كذلك، وحددت الشريعة له كليات أوجب عليه المحافظة عليها والسهر على حمايتها وكفالتها وأسماها بالكليات الخمس، وجعلتها أساسيات فطرية ومطالب شرعية لا يجوز بأي وجه من الوجوه الاستهانة أو العبث بها وهي:

أ- حفظ النفس:

لعظيم هذه الكلية ولعزة هذه الغاية جُعِلت في المرتبة الأولى قبل حفظ الدين، وقد أكدت الشريعة حق الحياة لكل كائن بشري مهما كانت جنسيته أو دينه أو لونه أو توأجه الجغرافي، ولا يجوز بأي وجه التعدي عليها إلا بحق، بل جُعِل إتلافها في غير وجه شرعي تَعَدَّى على البشرية جمعاء، يقول الحق سبحانه: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾⁸.

ب- حفظ العقل:

الإنسان الكائن العاقل المفكر المختار ما بين الخلائق، وقد جعل العقل في أعلى مقام لِقَدِّ الإنسان فمهما صَغُر حجمه أو قَصُر طوله أو تباين وزنه، فإن العقل مكانه محفوظ ومحاط بأصلب عظام الجسم، وما كل ذلك إلا دلالة على عظمته كعضو فاعل فعّال ومميّز ثم مميّز لحامله، وعليه فلا يمكن بأي حال إتلافه بالمهلكات الضارات، أو تغييبه بالمخدرات أو المسكرات، لأن الإنسان به يكون سوياً منطقياً متزن الأحكام وبغيره ينحدر دون الأنعام. لذا أوجب الإسلام على كل من يتلفه أو يغيّبه العقوبة اللائقة به.

ج- حفظ الدين:

حَفِظَ الإسلام عقيدة وسلوكاً وموروثاً تاريخياً حرية الإنسان في التدين، فلم يلزمه باتباع دين معين ولو كان حقاً، أو إرغامه على ترك دينه ولو كان باطلاً، بل كفل للإنسان مبدأ الحرية في الاعتقاد وألاً إكراه فيه، مصداقاً لقول الكبير المتعال: "لا إكراه في الدين" [البقرة: 255]، وهذه غاية في العظمة الإلهية، رغم أن التعقيب الذي جاء بعد الآية سألقة الذكر تخاطب العقل وتطلب منه الموازنة بين الغي والرشد، وأن الإيمان بالله هو النجاة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ورغم-كذلك- الآية التي قبلها أيضاً والتي وصفت الذات المقدسة بالكثير من أوصاف الكمال والجلال وسميت بأية العرش أو الكرسي.

د- حفظ العرض:

لخطورة الأعراض وقدسيتها في ميزان الشريعة الإسلامية، جعل المساس أو التلاعب بها من أكبر الحرمات والجرائم التي يُعاقب عليها فاعلها، لأن العرض المصون يضمن استمرار الحياة وقدسيتها وتستمر بعده الأجيال، والعرض المدنس أو المخدوش في قدسيته لا محالة زائل وبزواله تزول الحرمات وتتقطع أواصر العائلات وتُعدم بعده الأجيال إمّا بالمنابذة والتلميح أو بالمحاربة والتجريح، زد على ذلك أن الأسرة هي المحضن الأساس لتكوين الفاعلين في المجتمع سواء كانوا في ذلك رعية محكومين أو حكاماً قائمين على الحرمات

والأعراض، وبقيامها يقوم المجتمع المثالي وبزوالها تندك قواعده وصوابه، وعلى هذا جعلت الحدود لدرئ الشبهات وشرعت أحكام وضبطت بآليات لتجريم الفواحش كالزنا والقذف ورُتبت عقوبات شديدة. كقوله تعالى فيمن يُقدم على هتك العرض بغير وجه حقٍ بأنه زاني أو زانية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁹، ووصف كل من تسوّل له نفسه بلمس العرض بأنه فاسق وأن شهادته مردودة حتى يتوب بعد العقوبة وهي الجلد إن لم يأت بالشهود في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹⁰، ووصف سبحانه الكلمة الواحدة أو القول البسيط الهين هذا في العرض بأنه عظيم وأنه بهتان وهذا كله حرمة للعرض وحفظاً له من التدنيس في قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾¹¹.

هـ- حفظ المال:

رغب الإسلام في كسب المال ولم يحد له سقفاً معلوماً من الامتلاك، على أن يكون هذا الكسب من أوجه الحلال، وأن يؤدي حقاً من له الحق فيه، وجعل حق الحماية لهذا المال مكفولة بالطرق الشرعية والقانونية، وحدد حمايته مجموعة من الحدود سواء تعلّق ذلك بالسرقة أو الحراة أو غيرها من أوجه الفساد والذي يشيع في الأرض الخوف وعدم الطمأنينة والرغبة في الانتقام وبهذه السلوكات المرعبة تذهب فضيلة التسامح وتطيش العقول عن المصالحة.

وإذا ما علمنا أهمية التسامح والمصالحة في الحفاظ على الحياة بجميع مقوماتها وكيّاتها فما هي المرتكزات التي تنبني عليها فضيلة أو خلق التسامح والمصالحة؟

4. المرتكزات المساعدة لقيام التسامح والمصالحة:

قد يرى غيرنا من الباحثين لقيام فضيلة التسامح والمصالحة في أي مجتمع غير المرتكزات التي سنوردها أو قد يقاسمنا الرأي في بعضها ويخالفنا في البعض الآخر، وهذا اختلاف محمود وفي الجبله مقصود، إلا أننا سنذكر هذه المرتكزات بحسب الحاجة الفطرية والأدلة العقلية ثم التوجيهات التشريعية، لأنه مهما تباعدت الشقة بين بني الإنسان في مناهجهم البحثية والعلمية أو حتى العقدية الإثنية إلا أن أصل الخلقة جبلي والعرق إليها دسّاس نزاع، ولذا نجمل المرتكزات – والتي نراها قاسم مشترك في الإنسانية ونراها مساعدة على قيام التسامح والمصالحة فيما بينها- كالتالي:

أ- أصل الإنسانية واحد:

ما أعظم أن يحسّ الإنسان بإنسانيته وكيونته - وهو بأمرٍ الحاجة لها في هذا الزمان- وكرامته بفطرته وباعتبار التكريم الخلقي في أصله لا من حيث اللون أو الفكر أو حتى العقيدة، والعقلاء في جميع أنحاء الدنيا وعلى اختلاف أزمته وألوانهم يعتزون بهذا الانتماء لهذا الجنس المتفرّد عن باقي الأجناس والمخلوقات، كيف لا وهو الذي حاجّت الملائك ربّها فيه حين أخبرهم بأمره: ﴿إني جاعل في الارض خليفة﴾¹²، فبيّن لهم المولى سبحانه بأنه حقيق الاستخلاف لما زوّد به من حرية وإرادة واختيار، وهي كلها أسباب مؤهّلة لهذا المخلوق للاستحلاف والعمارة ثم بما غرس فيه من حب الاستطلاع والاستكشاف وبيّن لهم سبحانه فيما أنزل من توجيهات تشريعية بأن أصل الإنسانية واحد وأن المفاضلة لا تقوم إلا بالعمل الخيّر الصالح لفائدة البشر جميعهم أو على

أقل تقدير للمجتمع الذي يحي فيه هذا الإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾¹³، وجعل المسؤولية المترتبة عن هذا العمل فردية وشخصية في الكثير من الآيات منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾¹⁴، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾¹⁵، فما أنبل وأعظم الجنس البشري بهذا المستوى السامي.

ب- أصل الأديان واحد:

إذا ما علّم الإنسان أصل نشأته وأحسن بتلك اللطيفة التي بين جنبه- الروح- والتي تدعوه للعالم النوراني واستعمل عقله هُدي إلى مصدر النور، وعلم في غير لجج أن مصدره واحد وأن مشكاة النبوة واحد وإن اختلفت الأزمان والتشريعات وأسماء الأماكن والكتب المنزلة غير أن الدين واحد وهو القاسم المشترك بين جميع الأنبياء لقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾¹⁶، وتأكيداً لما سبق جاء الإذعان والاستسلام لله وعدم التفريق بين رسله في قوله تعالى: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾¹⁷.

وبهذا العلم اليقيني والتسليم المطلق، يمكن للجنس البشري أن يتعايش في ما بينه على اختلاف المعتقدات، وأن يتعامل الإنسان بالتسامح ويطبقه من غير إكراه أو اعتداء على جميع بني جنسه.

ج- الصلح والتسامح أصل والحرب عارض في علاقات الإنسانية:

تؤكد جميع النصوص التشريعية السماوية، سواء التي حُرِّفت كتبها التي تضمنتها، أو التي تكفل الله بحفظها أن الأصل في العلاقات التي تحكم الناس

هي علاقات صلح وتسامح، وأن الحرب أو المخاصمة ما هي إلا عارض في ذلك، حتى أن المشرّع سبحانه وصف الصلح بالخير وأصبغ عليه هذه الصفة فقال: ﴿وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾¹⁸، كما أمرت البشرية جميعاً أن تتعاطى الصلح والتسامح كعملة فيما بينها دون تحديد لجنس أو لعقيدة، وبخاصة أتباع الأديان السماوية في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْرُؤُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾¹⁹ وقوله سبحانه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾²⁰، والآيات الدالة على أهمية الصلح والمصالحة كثيرة مع تجنب الحرب حتى قال بعض علماء الإسلام: "إن الحرب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلا ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر تزهق فيه الأرواح"²¹.

د-العدل كمبدأ أخلاقي:

قد يستغرب القارئ أو السامع حين يرى أو يسمع بأن مبدأ العدل مبدأ كوني إنساني وهو يشمل السماوات وما فيها والأرض وما عليها، والعلاقات الإنسانية صغيرها وكبيرها، وحتى كل حركات الإنسان من قول أو عمل، لذلك عدّ هذا العامل من أعظم ما جاءت به الشرائع السماوية، وما أمر به الأنبياء عليهم السلام، ولو طُبق هذا المبدأ في حياة الناس لعاشت البشرية في سعادة دائمة وما ضاقت بالضنك أيامها.

فحين نستنطق الكتاب عن هذا الأساس وما أهميته في حياة الناس تأتي الإجابة بأنه أمر إلهي ملزم لكل الناس حتى تصلح حياتهم وتسعد أيامهم مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾²²، وكأن الذي لا يأتي بالعدل ولا يعيش لأجله أمر للفحشاء والمنكر مغمور فيهما، وهذا الخلق العظيم والأمر الجليل يشمل العدو

كذلك: ﴿ولا يجرمَنَّكم شنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله﴾²³، كما أن هذا الأمر يشمل القريب والبعيد حتى في القول، مصداقاً لقوله تعالى: "وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى" ²⁴.

ومن جلاله هذا المبدأ وعظمته أن أفرد المولى خطاباً لخير خلقه صلى الله عليه وسلم يأمره فيه بالعدل بين الناس عامة والمسلمين بصفة خاصة وهو المجبول على الخير كله والموصوف بأنه جمع الخير كله في قوله سبحانه: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾²⁵.

هـ-الاختلاف أصل في النشأة:

كيف يمكن الجمع بين ما تمّ تقريره في جزئيات سابقة من أن أصل الجنس البشري واحد وبين الاختلاف القائم بين هذا الجنس على أساس أنه أصل في المنشأ.

فإذا ما فهمنا هذا الأصل ولمّ الاختلاف قائم، تهيأت نفوسنا لقبول الآخر مهما كانت درجة الخلاف أو الاختلاف من العقيدة أو الفكر أو كان ذلك في الفروع أو الأصول، وأمکننا العيش معه والتعايش مع الواقع بما فيه لأن ذلك مقصدٌ معتبر في حدّ ذاته مصداقاً لقول العزيز الرحيم: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾²⁶، ولأجل هذا الاختلاف وتحققه في حياة الجنس البشري بعث الله النبيين: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾²⁷.

و-الحوار أم الصراع أصل في التعامل فيما بين البشر:

تمت الإشارة سلفاً إلى عنصرين هامين من مجموع العناصر المساعدة لقيام التسامح والمصالحة وهما أصل الجنس البشري وأصل الاختلاف المطلوب عليه هذا الجنس، ويأتي هذا العنصر لبيان حقيقة الجمع بهما كيف ذلك؟ الإنسان اجتماعي بطبعه غير أنه تنازعه الكثير من الخواطر، والتي قد تؤدي به إلى المخاطر، والتي هي أصل فيه أو في بعض الأحيان هي مكتسبات من خلال الممارسات، وقد تتداخل الكثير من المصالح أو الرغبات كما قد تكون قليلة لهذا الإنسان فيما بينه وبين بني جنسه من البشر، ولا مناص من الاحتكاك إذن، فما السبيل؟

الصراع المفضي إلى الفناء والتدابير وحمل الضغائن والقهر والاستبداد والتعالي على بني الجنس الواحد، هذا ليس بسبيل للعقل، فلا مخرج لهذا الإنسان ولبني جنسه إذن إلا التحاكم إلى العقل المؤدي إلى الحوار والكلمة الطيبة والمجادلة الحسنة.

فإن لزم الإنسان هذا المبدأ، مهما كان مستواه الاجتماعي وتوجهه العقدي ولون بشرته وموقعه الجغرافي، فإنه أمن نفسه من المهالك والمزالق المؤدية إلى التناحر والصراع، وجلب على نفسه وعلى غيره السلام والموادعة، وإن كان لا يسلم مع ذلك من سنة من سنن الخلق في ما بينهم وهي سنة التدافع، وإن كان ولا بدّ منها فتكون بالحسنى لا بالخسنى وبالكلمة الطيبة حتى تؤتي أكلها بإذن ربها، مصداقاً لقول الحق: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾²⁸.

5. حاجة الفرد للتسامح والمصالحة، أمثلة تفعية وواقع معيش:

حين بدأت الكتابة في هذه الجزئية تحديداً للتفعية ومساءلة التاريخ- وللأمانة العلمية- تاه يراعي حيناً من الزمن من كثرة الأمثلة التي لقيها قائمة في واقع الأمة وتاريخها الحافل بمثل هذه الوقائع والحقائق التاريخية، بدءاً من المؤسس الأول والمربي المعلم، الرحمة والرفقة المهداة للعالمين صلى الله عليه وسلم، ومن أتباعه من الصحابة أو الذين جاءوا بعدهم وسواء كانوا حكماً أو محكومين على حدٍ سواء.

يحتاج الفرد لتدريب نفسه وأخذها على أن تكون من أصحاب الهمم العالية والمقامات السامية، ولعلّ من تلك المراتب أن يبلغ بها درجة المسامحة والعفو ليس من باب الضعف والهوان ولكن من باب الاقتدار والقدرة والقوة، وليس أحدٌ أقدر على هذا المقام وأخذ نفسه حتى تسامت عن المقام نفسه والخلق في حد ذاته منه (صلى الله عليه وسلم)؛ فمواقفه في مثل هذا الحال كثيرة ؛ ونذكر منها للمثال لا الحصر "قصة الرجل" الذي أراد قتل النبي(صلى الله عليه وسلم) حينما تمكّن من سيفه، غير أن الدائرة دارت على الفاعل وأصبح رهينة في يد النبي(صلى الله عليه وسلم)، وسامحه وعفا عنه.

فقد روى الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما): أنه غزا مع رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قبّل نجد، فلما قفل رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، وتفرّق الناس في العضاة يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله(صلى الله عليه وسلم) تحت شجرة فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعونا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله(صلى الله عليه وسلم): "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس. ثم لم يعاقبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)"²⁹.

هذا المثال نموذج للتسامح الفردي، رغم ما صاحب الفعل من مخاطر ومزالق، وكان من حق النفس المعتدي عليها إن شاءت أن تقتص من المعتدي بالمثل، غير أن النفوس الكبيرة والعقول النيرة والقلوب الطاهرة، لها في التسامح مدارج ولها مع الخصام قطيعة، فتستبدل الخصومة مودة وتستبدل التعدي والمناجزة بالصفح والعفو والمسامحة.

كما يمكن أن يُتخذ من هذا المثال الواقعي خير دليل للاستشهاد به والتأسي من خلاله على أن التسامح والمصالحة ممكنة مع الآخر حتى وإن كان ذلك الآخر ألدَّ خصومنا وأعدائنا، كما يمكن أن نربي على مثل هذا الخلق النشء الصاعد وإنسان مجتمع الغد والذي يقبل بالتعددية والاختلاف مع الآخر والتعايش السلمي مع التسليم مقدماً بالقدرة والتمكين والقوة في غير غطرسة ولا جناية.

6. حاجة المجتمع للتسامح والمصالحة، مثاله وو اقعته في التاريخ:

قد لا يستغرب الإنسان من موقف واحد من مواقف التسامح لرجل قام به من باب الرجولة أو الشهامة أو حتى من باب التربية والتوجيه، فإن كان ذلك في زمن ما فقد لا يتكرر هذا الفعل من نفس الشخص وفي مواقف متعددة. يحدثنا التاريخ حين مساءلته عن مثل هذه الوقائع والمواقف، فلا ينطق لسان حاله إلا بذكر المثال الواحد الأحد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، والذي كان أمة في فرد وفرد جمعت تحت أقدامه الخصال والشمائل راغمة، تشهد له بعلو كعبه وبرسوخ قدمه، والذي عاش التسامح في كل لحظة من لحظات عمره وفي كل حركة من حركات حياته الطاهرة (صلى الله عليه وسلم)، وهو القائد ورئيس الدولة والفتاح والمقتدر على من أخرجوه وحاربوه. وقد حدثنا التاريخ عن غيره من القادة والفتاحين، والذين عاثوا فساداً بعد الاقتدار، وأذلوا العرض والأرض بعد الانتصار، وجاءت شهادة ذلك على

لسان العارفين بحقائق الأمور ودقائق التاريخ على لسان بلقيس حينما وصفت الملوك وما يقومون به حين انتصارهم فجاء قولها في القرآن: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾³⁰، وجاء التعقيب الرباني على كلامها تأكيداً لما ذهبت إليه وتوضيحاً لخبايا النفس المملوءة بروح الانتقام تتمّة للآية: "وكذلك يفعلون"³¹.

ونعود لسيرة القائد القدوة، ورئيس الدولة الفاتح المقتدر، والذي أخرج قومه عنوة وتحت ظلال السيوف القاهرة وهو مستخف منهم خشية البطش والقتل، وتأمروا على قتله ونكلوا بأصحابه وقتلوا منهم من قتلوا وخرج منهم هارباً بدينه من خرج مستخفين من سطوة وجبروت قريش، فإذا ما قيست هذه العداوة، وهذا التعدي في حق الأشخاص والممتلكات، وعدم إبداء التسامح، ولا لغة الحوار حين القدرة عليهم، فسيكون الجزاء بالمثل شيء قليل. غير أن التاريخ يسجل على صفحاته سمفونية قلّ ما سمعت أذانه وتشنّفت بألحان مثل ألحانها، تلك التي خطّها محمد النبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم)، بسلوكه وأفعاله قبل أقواله وأحاديثه.

فحينما دخل مكة قام على باب الكعبة وقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" ففي لحظة الانتصار لم تزده نشوة ذلك إلا تواضعاً لله، فقد وصف نفسه بالعبد بعد أن أكّد أنه لا حاكم في الوجود إلا الله وأنه المتصرف الوحيد في ملكه، ثم التفت إلى الذين حاربوه وأخرجوه وكادوا يقتلونه لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً قائلاً: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم" قالوا: "خيراً أخ كريم وابن أخ كريم".

فقد شهدوا له بالخيرية وأن نفسه الطاهرة لا تنطوي سجيّتها على خبث أو حقد أو انتقام، بل كلها خير وكرم وجود وسماحة وتسامح، فأطلق عليهم الرحمات الوفيرة والعطايا الحسان بعد ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء". ثم جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في

المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أين عثمان بن طلحة ؟ " فدعي له، فقال: " هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء"³².

7. آثار التسامح والمصالحة في حياة الفرد والمجتمع:

لا يعدو الإنسان العاقل الحق إذا ما سئل عن آثار التسامح والمصالحة وأجاب بالإيجاب، وقد مرّ بنا كيف هو خلق التسامح وما يخلفه من آثار طيبة في نفس الشخص الواحد كما يعود بعميم الفائدة على المجتمع كله.

أ-على مستوى الفرد:

-يسعى خلق التسامح والمصالحة إلى الارتقاء بنفسية الفرد إلى الانسجام والتوازن ويغرس فيها كل ما هو فطري عقلائي، تحترم العقل وتحترم نتاجه العلمي الممنهج.

-يعطي خلق التسامح والمصالحة إيماناً راسخاً وشعوراً متبادلاً مع بقية أفراد الجنس البشري بأنه يقاسمهم إنسانيتهم ويحترم اجتهاداتهم وتصوراتهم دون السقوط في فخ الاستعلاء والتكبر أو الخنوس والشعور بالنقص.

-يمثل التسامح والمصالحة نقطة التقاء للفرد مع غيره في عالم يعج بالأفكار وتقاسم الفضاء الفكري والمصير وحتى في بعض الأحيان المحيط والثروة غير أنه كذلك يمثل نقاطاً لازالت غير واضحة ومعالم لم ترسم حدودها مع البعض الآخر.

-إن التسامح والمصالحة ينميّان في الفرد قدرة الإحساس بالمسؤولية تجاه نفسه وتجاه غيره، مستجيباً في ذلك لدواعي التغيير والتحسين وفق ما يقتضيه الواقع المعيش والمستقبل المرتجى.

-لن ينعم العقل بفسحة التدبر ولا الجسم بهامش الراحة ولا النفس بالاتزان إلا إذا ما ساد التسامح والمصالحة محيط الإنسان كله في جميع الأصعدة التي يحتاجها في عقله وبدنه ونفسه.

- التسامح والمصالحة ما وُجدا في أمر إلا ازدان كالروض المعطار وزهر أس يتعهدها صاحبها بالسقي والمحافظة.

ب- على مستوى المجتمع:

-إن أول آثار التسامح والمصالحة أن تشيع الفضيلة والأخلاق النبيلة بين أفراد وطبقات المجتمع الواحد حتى وإن كانوا مختلفين في المذهب العقدي والتوجه الحياتي.

-يسود الاحترام بين المجتمع الواحد كما هو الحال كذلك ما بين المجتمعات، لأن الفرد آمن في مجتمعه مؤمن في وطنه ومحيطه مع المجتمعات الأخرى.

-تسمح ركيزة التسامح والمصالحة بالنهوض بالمجتمع والتوجه به نحو أفق أسمى وغايات كبرى، لأن فيه تحرر المبادرات، وتُحترم الآراء من غير إقصاء ولا ازدراء.

-من خلال تمتين هذه الركيزة في المجتمع تسمح للنخب برفع مستواها العلمي والمنهجي ومنها رفع معنويات المجتمع كله للرقى والالتحاق بركب الحضارة.

-يسود التآلف والانسجام جميع شرائح المجتمع في حين تواجد هذه الركيزة الأساسية، مع الاعتراف بعدم زوال الفروق الفردية لكل فرد.

-التسامح والمصالحة يحزّران الطاقة الكامنة في المجتمع لكل فرد ويجعلون من كل واحد فيه خيط سدى لنسيج متكامل مزدان بكل الألوان والأطياف، على ألا يغلب لون على لون أو طيف على مثيله.

8 - خاتمة:

إن البشرية اليوم بما وصلت إليه من تطور ورقي في الجانب المادي حتى أضحت محيطها كقرية عالمية مصغرة لا تزال فيه بعض المناطق عاجزة عن التفاعل مع هذا المحيط وبخاصة مناطق العالم العربي والإسلامي، وقد اجتمعت على ذلك مجموعة من الأسباب منها التاريخية ومنها الواقعية ومنها ضيق النظرة المستقبلية، والتي من خلالها يبدو العجز الواضح على الانسجام والتوافق.

غير أن أحد الركائز الأساسية والتي تمت معالجتها في هذا البحث -وهي ركيزة التسامح والمصالحة- وغيرها كثير كفيلة بأن تأخذ بيد هذه المجتمعات العربية إلى الأمام وأن تساعد على دفع عجلة السير والانطلاق نحو أفق استشرافي ومستقبل بديل زاهٍ وإعٍ إذا ما صدقت النوايا وهيئ لها الجو المناسب والزمن اللازم.

وفي الختام نسأل الله كما سألناه في البداية الهداية والرشاد والإخلاص والسداد للبلاد والعباد.

الهوامش المستعملة:

- 1- إسماعيل بن عباد بن عباس، صاحب الوزير: المحيط في اللغة، تح: محمد حسن آل الشيخ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1994م، ج1 ص202.
- 2- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1968م، ج3 ص504.
- 3- سورة "البقرة"؛ الآية: 255.
- 4- سورة "النحل"؛ الآية: 90.
- 5- سورة "التوبة"؛ الآية: 2.
- 6- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، ج1 ص383.

-
- 7- علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ، ص176.
- 8- سورة "المائدة"؛ الآية: 32.
- 9- سورة "النور"؛ الآيتين: 2 و3.
- 10- سورة "النور"؛ الآيتين: 4 و6.
- 11- سورة "النور"؛ الآيتين: 5 و16.
- 12- سورة "البقرة"؛ الآية: 30.
- 13- سورة "الحجرات"؛ الآية: 13.
- 14- سورة "الأَنْعام"؛ الآية: 164.
- 15- سورة "النجم"؛ الآية: 39.
- 16- سورة "الشورى"؛ الآية: 13.
- 17- سورة "البقرة"؛ الآية: 136.
- 18- سورة "النساء"؛ الآية: 128.
- 19- سورة "البقرة"؛ الآية: 224.
- 20- سورة "النساء"؛ الآية: 114.
- 21- محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية، دار القلم الكويت، ط1، 1979م، ص142.
- 22- سورة "النحل"؛ الآية: 90.
- 23- سورة "المائدة"؛ الآية: 8.
- 24- سورة "الأَنْعام"؛ الآية: 152.
- 25- سورة "الشورى"؛ الآية: 115.
- 26- سورة "هود"؛ الآيتين: 118 و119.
- 27- سورة "البقرة"؛ الآية: 213.
- 28- سورة "فصلت"؛ الآيتين: 33 و35.
- 29- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: صحيح البخاري، المطبعة السلفية، الهند [د ت ط] باب من علّق سيفه، ج4 ص427، الحديث رقم 2694.
- 30- سورة "النمل"؛ الآية: 34.

31. سورة " النمل " ؛ الآية: 34.

32- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، دار صادر بيروت لبنان [د ت ط]، ج 1 ص 344.

مصادر ومراجع البحث:

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ط 1، 1968 م.
- 2 - إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط 4، 1407 هـ/ 1987 م.
- 3 - إسماعيل بن عباد بن عباس، صاحب الوزير: المحيط في اللغة، تح: محمد حسن آل الشيخ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1، 1994 م، ج 1.
- 4 - إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، دار صادر، بيروت، [د ت ط].
- 5 - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: صحيح البخاري، المطبعة السلفية، الهند [د ت ط].
- 6 - محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية، دار القلم الكويت، ط 1، 1979 م.
- 7 - علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1405 هـ.